مجلة بحوث
كلية الآداب

البحث (١)

تمازج لغة الحب ولغة وصف الطبيعة في شعر ابن زيدون

إعداد

د / أروى محمد أحمد ربيع

أستاذ مساعد - جامعة جرش

السنة ٢٧ العدد (١٠٤) يناير ٢٠١٦م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rifa2012@ Gmail.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمازج لغة الحُبّ ولغة وصف الطبيعة
في شعر ابن زيدون

د/ أروى محمد أحمد ربيع

أستاذ مساعد – جامعة جرش

تمازج لغة الحب ولغة وصف الطبيعة
في شعر ابن زيدون

تُعدّ حركة الأدب والفكر والحضارة، في الأندلس، أثراً من آثار البيئة السياسية[1] والطبيعة في الأندلس، على الرّغم من أن البيئة الأساسية لهذه الحركة مشرقية الأصول والروح.

وهذه الأرض التي أرسى فيها العرب أسس دولة ذات سمات حضارية جديدة تتميز بطبيعتها الخلابة، التي تختلف عمّا ألفوه في جزيرة العرب، وما في أرضها من مظاهر الجفاف الذي فرضته الطبيعة عليها.

وإلى جانب البيئة الطبيعية الساحرة، ببحارها وأنهارها وجبالها ووديانها وأجوائها المعتدلة، كانت هناك حياة اجتماعية[2] متميزة بالانفتاح تتيح لناسها أجواء من الحرية، وحياة الرّخاء، وما ينشأ في ظل ذلك من شيوع الاختلاط واتخاذ ما يُمتّعون به أنفسهم من غناء وسماع الموسيقى، ووسائل المتعة والتسلية، ولا شكَّ أن كلَّ هذه المظاهر إنما تمت في ظلّ مدن مزدهرة بعمرانها وقصورها، ومتنزهاتها، ومجالس اللهو فيها.

(1) ابن زيدون، الديوان، تحقيق حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت،الطبعة الأولى ١٩٩٠، ص ٥-٧.
(2) ابن زيدون، الديوان، ص ٧-٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في ظلّ هذه الأجواء الطبيعية الجميلة، ومظاهر الحياة الاجتماعية المفتحة وما يسودها من حرية ظهر الأدب العربيُّ في حُلّة جديدة في لغته وصوره ومضامينه وشكله وما أتاحه ذلك من ولادة فنين جديدين يتمثلان بالموشح والزجل.

ومن ثمّ فمن المتوقع أن نجد ابن زيدون، الذي سينصَبُّ هذا البحث على دراسة جانب جديد من لغته، يقول، في وصف أحد متنزهات المعتضد[٣]:

لَمْعُ طَلٍّ مِنَ العَيْشِ مَا إنْ ... لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَعْوِيضُ
سَوْغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ ... لِلْمُنَى مِنْ سَحَابِهَا تَرْوِيضُ

من خلال التمعن في هذين البيتين، تأسرنا جماليّة اللغة والأسلوب ، من خلال توظيف الشّاعر لمفردات تعبر عن حالته النفسيّة ، إذ جاءت الطبيعة بمثابة مسوغ مهم للحياة ، بتوظيفه (سوّغتني نعيمها نفحاتٌ) ، فكأن الطبيعة تروض ابن زيدون من خلال توظيفه للمصدر (تفعيل) إذ جاءت كلمتي (تعويض وترويض) مع التركيز على حرفي التاء والضاد بصفتهما من الحروف المهموسة التي تتناغم مع الجو العام للقصيدة ، الذي يتشح بحزن الشّاعر وكآبته . فالتاء والضاد حرفان من مجموعة الوقفات الأسنانيّة – اللثويّة . [١] إذ توحي هذه الحروف بمدى الأزمة النفسيّة التي تنتاب الشاعر ، فجاءت الطبيعة الأندلسية بجمالها مخففة عليه هذا الضغط .

ابن زيدون، أحد الشعراء الكبار في الأندلس، الذين كان للطبيعة الجديدة أثر واضح في شعره من حيث المعاني ، والصور ، وبناء القصيدة. غير أنّ أهمّ ما بدا لي وأنا أدرس شعره لغته التي كان أثر الطبيعة فيها واضحاً جداً إلى حد أنّ شطراً كبيراً منها شكّل ظاهرة جديدة اشترك في تكوينها الحبّ والطبيعة. وهذه الظاهرة مدار البحث مستمدة من وصف الشاعر ابن زيدون[*] بـ: (شاعر الحب والطبيعة)[٢]، فإنعام

---

(٣) ابن زيدون، الديوان، ص ٢٨٢.

(*)فوزي حسن الشايب : محاضرات في اللسانيات ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان طبعة الاولى، ١٩٩٩، ص١٦٥-١٦٩.

انظر : الخليل بن احمد الفراهيدي : مقدمة كتاب العين : تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٧-٣٨.

(*) تعريف بالشاعر ابن زيدون: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي، ولد بالرّصافة من ضواحي قرطبة من اب عالم واديب ومثقف، عُرف بسعة روايته، وقد توفيَ وابنه لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره، عاش في قرطبة. ديوان ابن زيدون ، تحقيق وشرح حنّا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠، ص١٥.

(٢) علي عبد العظيم : ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ، ص ٣٧٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النظر في شعر ابن زيدون يكشف بوضوح اختلاط لغة الحب بلغة وصف الطبيعة إلى حدّ التمازج والتماهي. ولعلّ هذا ما يشكل ظاهرة جديدة في شعره تستحق الدراسة والبحث.

عرف عن ابن زيدون ولعه الشديد بوصف الطبيعة، كما اشتهر بحبه لولّادة بنت المستكفي(*) وهيامه بها. في البدء كان يستعين بمظاهر الطبيعة ،ولا سيما النباتية في غزله وصفاً لولّادة ، وتشبيهاً لمفاتنها بمفاتن الطبيعة.

يا روضةً طالما أجنَتْ لواحِظَنَا ... وَرداً ، جَلاهُ الصِّبا غَضًّا ، ونسرِينَا

ويا حياةً تملَّينَا بِزهرتِها ... مُنًى ضُرُوباً ، ولذّاتٍ أفانينا (١)

تطور هذا المنحى بعد سجنه للقطيعة بين الحبيبين ، الذي اضطر معه الشاعر إلى التّوجه إلى الطّبيعة يشكو إليها آلام الفراق، ويطلب إلى برقها أن يوصل السُّقيا إليها (٢):

يا ساري البرق غادِ القصر واسقِ به ... من كان صِرف الهوى والودُّ يسقينا

يوجه الشّاعر خطابه للبرق ويستجديه علّه يسقي ولّادة ، وهي تسقيه ، فولّادة هي البرق ، وهي حياته فكل جماليات الطّبيعة تتمثل بولّادة .

وحين يخاطب الحبيبة مباشرة يستذكر الأشجار والغصون والأزهار، التي كانت تجري في أفيائها اللقاءات السعيدة، وحين طال سجن الشاعر زاد لجوءُهُ للطبيعة يبثها أحزانه ومواجده،

ويا نَسِيمَ الصِّبَا ، بَلِّغ تحيَّتَنَا ... من لَوْ عَلى القُربِ حَيًّا كان يُحيِين (٣)

وحين كثُر خطابه للطبيعة بدأت مرحلة جديدة، إذ كان يجد فيها من يستعين به على مواجهة سيل النّكبات.

(*) ولادة بنت المستكفي: ابنة الخليفة الأموي المستكفي، الذي تولى الخلافة سنة ١٠٢٣م/ ٤١٤هـ وخُلع بعد فترة قصيرة أي سنة ٤١٦ هـ ولدت ولادة سنة ١٠٠١م من أم حبشية، ونشأت نشأة متواضعة، إلاّ أنها كانت على درجة من الجمال والظرف، التقى بها ابن زيدون في بيتها الذي كان ملتقى للادباء، وأُعرم بها قائلاً: "كنت في أيام الشباب، وغُرّة التصاب، هائماً بغادة، تُدعى ولادة"، ومن المرجح أن صلته بها لم تبدأ إلا بعد زوال الدولة الأمويّة في الأندلس ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، احمد بن محمد المقرّي التلمساني، ت : يوسف الشيخ محمد البقاعي ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦ .

(١) ابن زيدون ، الديوان ، ص ٣٩٠ .

(٢) ابن زيدون ، الديوان ، ص ٣٨٩ .

(٣) ابن زيدون ، الديوان ، ص ٣٨٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا شكّ في أن لغتي وصف الطبيعة والغزل، حين تستثمران معاً على مدى طويل، لمعالجة تجربة ذاتية في إطار قصيدة واحدة ستأتلفان وتتقاربان، وأنهما حين تستخدمان معاً لرسم صورة شعرية بعينها سيتاح لهما مزيد من الألفة والشروع بمحاولة التمازج. أمّا حين يتوجه الشاعر بالخطاب إلى إحدى مفردات الطبيعة كالشجرة أو القمر أو البرق، ليبثها شكواه أو يشرح لها أحزانه فهو يرى حينئذٍ فيها مخايل الحبيبة دون وعي منه، ويضطر إلى أن يستعير من خطاب الحبيبة ما يتوجه به إلى الطبيعة، وعلى مدى الزمن، وخاصة حين تغيب الحبيبة نتيجة الهجر أو الفراق بسبب السجن، تبدأ الطبيعة بتعويضه عن حضور الحبيبة، وتبدأ اللغة أيضاً بمطاوعة الشاعر على توجيه الخطاب إلى الحبيبة البديلة. وهكذا يتهيأ الجو لتمازج لغتين أو استعانة إحداهما بالأخرى، لتكون من ثمّ لغة ذات سمات جديدة.

إن للطبيعة أثراً واضحاً في شعر ابن زيدون، فصورها منثورة في تضاعيف قصائده بحيث تشكل ركناً مهماً من بنيتها، إذ تتغلغل في ثنايا صوره وتشكيلاته الشعرية، وفي غزله ومديحه، ونجواه وشكواه، واعتذاره، فهي أداةُ تعبيره، وتصويره البياني، وفي كل فنون أدائه[٤]. وهيام ابن زيدون بالطبيعة متوقع منه، فأهل الأندلس جميعاً، أحبوا الطبيعة الساحرة الخلابة، وهاموا بها، واندمجوا فيها ووصفوها، وصدروا في ذلك عن صدق عاطفة، تعبيراً عن شدة ارتباطهم وتعلقهم بها. فكيف لا يحبها ابن زيدون؟ ابن زيدون المرهف الأحاسيس ذو المشاعر الرقيقة، الذي ألف أجواء النعيم، فضلاً عمّا يتمتع به من قدرة على استشفاف معاني الجمل في تجلياتها البهيجة، لذا تغنى بمظاهر الطبيعة واعتبرها ملهمته، فكانت إحدى بواعث الإبداع في شعره.

فالطبيعة بتجلياتها الساحرة تستحوذ على مشاعر الشاعر، وأفكاره، ومن ثم فهي تخضع لسطوة خياله، فتظهر تشكيلاتها صورة معبرة عن رؤاه وأفكاره. إن صور الشاعر

(٤) انظر: المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق عبد السلام الهراسي وسعيد أحمد أعراب، إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، ودولة الإمارات العربية، ١٩٨٠، المجلد الأول، ص ٦١-٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجمله الشعرية بعامة هي نتاج تفاعل خيال الشاعر مع إيحاءات الطبيعة، فكلما ازدادت وتيرة هذه الإيحاءات تسامت أخيلة الشاعر ليبدع في تصويرها(٥).

ولقد جاءت صور الطبيعة هذه بفعل خيال الشاعر ملأى بالحركة والحياة، فهي في حركة دائبة ترى وتسمع وتشعر وتتحرك وتتعاطف مع الشاعر.

وإذا كانت الطبيعة بكل مظاهرها الساحرة والجذابة، مصدر إلهام لابن زيدون، فاستقى من منابعها كلَّ صور إبداعه، فإن أثرها في إبداعه وإلهامه، قد ازداد إذ شاركته تفاصيل قصة حبّه وسعادته وأحداث مكابدته مواجد الهجير والقطيعة بينه وبين ولّادة، وآلام سجنه وما لقيه فيه من مرارة فراق الوالدة والحبيبة والأهل والأصدقاء وعذاب فقدان الحرية.

لقد دعت الطبيعة وِلادة حبَّ ابن زيدون لِوَلّادة ، وشهدت أعذب لحظات الودّ والصفاء وتسأقي كؤوس الهوى، فكانت شريكة الحبيبين في هذه المشاهد البهيجة، في مجالس اللقاء في أحضان الرِّياض، وفي ثنايا القصيدة وبين صورها أيضاً، فكانت هي والحبيبة عناصر بناء كِلّ صور الإبداع، وتقاسمت هي والحبيبة مهمة مدّ الشاعر باللغة التي تُسعفه في تصوير مشاهد السعادة والهناء.

وأسعفت الطبيعة الشاعر إبّان معاناته ألم الهجر وعذاب الصدود، فكانت معينة في إيصال توسلاته واعتذاراته وتمنيه معاودة الوصال، فالطبيعة كانت شفيع الشاعر تتوسل معه وتستعطف الحبيبة القاسية، وكانت لغة مفرداتها مطاوعة للشاعر في معانيه ورسم مشاهد توسلاته. فاالطبيعة نهضت بكل مفرداتها بمهمة ايصال الشكوى المَرّه إلى الحبيبة .

(٥) فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، الكويت، ٢٠٤، ص ١٦٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتجلت براعة الشاعر في المزج بين مفردات الطبيعة بكلّ ما تشتمل عليه من موجودات، ولغة الحبّ بكل ما فيها من مشاعر الشوق والحنين وتمني اللقاء، وتصوير ألم الفراق، ويتمثل هذا [٦]:

أعادَ الصَّباحَ الطَّلْقَ لَيْلاً عَلَيهِمُ ... فَجاءَ، وأَثنى ناظِرَ الشَّمسِ أزمَدا

فَحَلَّ هِلالاً في ظَلامِ عَجاجَةٍ ... تُلاحِظُهُ الأَقمارُ في الأُفقِ حُسَّدا

فاستخدام مفردات الطبيعة مثل: الصّباح، والليل، والشّمس، والهلال، والظلام، والأقمار، والأفق، نسجَ منها صوراً فنيّة غايةً في الجمال، فقد أضاف الرمدَ إلى عينِ الشّمس، وألحق بالأقمار صفة الحسدِ التي يختصُّ بها بعض بني البشر.

وفي قصيدة أخرى نجد الشاعر يوظف مفردات الطبيعة لتشاركه آلام الضيق والشدّة التي لازمته في سجنه فراح يستعطف أبا الحزم، ويطلب منه المغفرة بقوله[٧]:

هَلِ الرِّياحُ بِنَجمِ الأرضِ عاصِفَةٌ

أَمِ الكُسُوفُ لِغَيرِ الشَّمسِ والقَمَرِ؟

إنْ طالَ في السِّجنِ إيداعِي فلا عَجَبٌ

قَدْ يُودَعُ الجَفْنَ حدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

تظهر هنا قدرة ابن زيدون التّصويرية من خلال امتزاج الطبيعة ، وما فيها من مكونات مع أحاسيسه المتأججة، فيتوحد مع الطبيعة، فإذا بها تشاركه معاناته، هذه المشاركة الوجدانية أضافت الحيوية والجمال لهذه الأبيات ، من خلال اللغة التي نهضت بهذه المهمة الجديدة. التي برع فيها ابن زيدون من خلال توظيف الجمل الإنشائية ، التي تجعل من مظاهر الطبيعة عنصراً مشاركاً له في حيرته .

(٦) ابن زيدون، الديوان، ص ٢٣٨-٢٣٩.
(٧) ابن زيدون، الديوان، ص ٣٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو يخاطب محبوبته ولّادة [٨]:

يا فتيتَ المسكِ، يا شمسَ الضُحى

يا قَضيبَ البانِ، يا ريمَ الفلا

إنْ يكُنْ لي أملٌ غيرُ الرِّضا

مِنكِ، لا بلّغتُ ذاكَ الأملا

فمحبوبته هي شمس الضُحى، وقضيب البان، وريم الفلا، ولا أمل له في هذه الدُنيا غير رضاها. فالشّاعر يطوّع الطبيعة ليعبر بها عن مكنوناته تجاه حبيبته ولّادة، وهنا يحارُ المتأمل: من هي الملهمة الأولى للشاعر، أهي الطبيعة الأندلسية، أم هي ولّادة؟

وغزل ابن زيدون مصدر من مصادر هذه اللغة الجديدة، ومحور هذا الحبّ ولّادة بنت المستكفي سليلةُ بيت الخلافة[٩]، الغادة الفاتنة الجمال الشاعرة المثقفة، جليسة الشعراء والأدباء، المعروفة بدقة الطبع، وكرم النفس، وجمال الروح، وحضور البديهة.

استولت هذه الفتاة على مشاعر ابن زيدون فهام بها حباً، وبادلته الحب، فكتب فيها أرقّ القصائد، حتى اقترن ذكره بذكرها، واسمه باسمها. وتنطوي هذه القصة على معان جعلتها موضع اعتبار وعناية فهي تمثل في معناها العام هذه التجربة الإنسانية، بكل ما جاشت به مشاعر الإنسان في أحوال الحب المختلفة[١٠]، إنّ حب ابن زيدون لولادة كان حباً قوياً عميقاً، فاض بأعذب الشعر، وباحت قصائده بكثير من الأحوال التي يمرّ بها العاشق من شكوى، وحنين، وعتاب، وهجر. وفي كل هذه الحالات كانت

(٨) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٢١.
(٩) انظر: نفح الطيب، ٣٣٧/٥ـ ٣٤٣.
(١٠) سعيد حسن منصور: التجربة الإنسانية في نونية ابن زيدون، الدوحة، قطر، ١٩٨٣، ص ٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبيعة حاضرة وشاهدة على هذا الحب ، فلا عجب أن تشاركه بلغتها وأسلوبها ، وما تملكه من سحر .

فالطبيعة والمرأة تبدوان متلازمتين في شعر ابن زيدون، وبخاصة في الصور التي تفتنُ اللغة في تشكيلاتها، إذ طوّع الشاعر اللغة لهذه المهمة الفنية الصعبة، حين جعل من الطبيعة محوراً تدور حوله قضاياه تجاه الحبيبة ولادة التي لم تسر علاقته بها على وتيرة واحدة، فبعد عهد الصفاء والمودة، جرت قطيعة، أعقبها تراضٍ، فقطيعة أخرى، فهجر أحزن الشاعر وأضناه، ولم يعد أمامه للتخفيف من شدة انفعالاته في خضم هذه الأحداث غير الاستعانة بالطبيعة للتعبير عن أساه وعمق حبه لولادة[11]، وحزنه لفراقها، وشوقه إلى لقائها، وسعيه لاسترضائها واستعطافها، مستذكراً ما كانا ينعمان به من ود ، وهما في أحضاء الطبيعة . فالطبيعة ترعى لقاءاتهما وتسمع تناجيهما، فامتزج سحر الطبيعة بلوعة الحبّ، وذكريات الهوى، فجاءت أشعاره مزيجاً جميلاً من صور الطبيعة الغناء، والمشاعر المتأججة الدافقة[12]:

إنّـــي ذكرتُـــك بـــالزّهراءِ مُشْـــتاقا ... والأفْقُ طَلْقٌ، ومَرْأى الأرضِ قد راقَا

وللنّســـيمِ اعـــتلالٌ فـــي أصَـــائِلِهِ ... كأنّـــه رقّ لـــي فاعتـــلّ إشـــفاقَا

والـرّوضُ عـن مائـهِ الفِضّـيّ مُبتَسـمٌ ... كمـا شَـقَقْتَ عـن اللّبَـاتِ أطواقَـا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهرٍ ... جال النّدى فيهِ حتّى مالَ أعناقَا

ما يمنح هذه الصورة سمة الحيوية ويبثُّ فيها الحركة، أن الشاعر ابن زيدون يتميز بصدق العاطفة، وحرارة المشاعر، والبعد عن التكلف، ويزيدها في الوقت نفسه إدهاشاً وإثارة للمتلقي، قدرته على ابتكار الصور الجديدة التي تستمدُّ مادتها من اتحاد الطبيعة بالحبيبة، وهذا التمازج هو سرُّ ظهور الطبيعة بكل مفرداتها، بهذا الشكل الجميل المتناسق يستمد طراوته وجماله من الحبيبة في مختلف أحوالها: راضية غاضبة معرضة مبتسمة. ولهذا تبدو الرّياض البهية، والنسائم العليلة، والمياه المترقرقة، تشاطره اللوعة

[11] . انظر : علي عبد العظيم : ابن زيدون ، عصره حياته شعره ،ص ٣٦٠-٣٦٥ .
[12] . ابن زيدون : الديوان ، ص ٣٩٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على فراق من يحب، ويطرب له إذ تراه سعيداً مع الحبيبة في مغاني الزهراء أو في صبواته إلى لقاء ولادة عقب فراره من السجن.

اللغة التي وظفت لتصوير هذه المشاعر المتناقضة لغة سهلة منسابة مطوعة تستجيب للتعبير عن هذه العواطف المضطربة، فيها مزيج من حبّ الطبيعة، ووصف مفاتنها، واستذكار لحظات الهناء في رحابها، والحنين إلى لحظات اللقاء مع الحبيبة، وهذا يظهر جلياً في قصيدته التي قالها وهو في سجنه، يتذكر قرطبة ومغانيها وقصورها التي أثارت ذكراها أشجانه وحنينه إلى لحظات اللقاء مع محبوبته ولادة، غداة عيد الأضحى، بقوله[١٣]:

خَلِيلَيَّ، لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضْحى ... فما حَالُ مَنْ أمسَى مَشُوقاً كما أضحى؟
لَئِنْ شَاقَنِي شَرقُ العُقَابِ ، فَلم أَزَلْ ... أَخُصُّ بِمَمْحُوضِ الهوى ذِلكَ السَّفحَا
وما انفَكَّ جُوفِيُّ الرُّصَافَةِ مُشْعِرِي ... دَوَاعِيَ ذِكرَى تُعقِبُ الأَسفَ البَرْحَا
ويهتَاجُ قَصْرُ الفَارِسِيِّ صَبَابَةً ... لِقَلبِيَ، لا تَألُو زِنَادَ الأَسَى قَدْحَا

إلى أن يقول:

وأَيَّامُ وَصْلٍ بِالعَقِيقِ اقتَضَيتُهُ ... فَإِلاَّ يَكُن مِيعَادُهُ العِيدَ فالفِصحَا
ألا هَلْ إلى الزَّهراءِ أَوْبَةُ نَازِحٍ ... تَقَضَّى تَنائِيهَا مَدامِعَهُ نَزْحَا
مَحَلُّ ارتِيَاحٍ يُذْكِرُ الخُلْدَ طِيبُهُ ... إذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الفتَى فيهِ أو يَضحَى
هُنَاكَ الجِمَامُ الزُّرقُ تَندَى حِفافُها ... ظِلالٌ عِهِدتُ الدَّهرَ فيها فتىً سمحَا

فهذا الحب العميق، المحمل بصدق العاطفة، والشوق إلى هذه الأمكنة لم يعرف إلاّ في سياق الحب والغزل، فالشّوق، والصّبابة، والهوى التي يقدح بها زناد الأسى، ثم

(١٣) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوصل، والميعاد، والعتاب، والمدامع. وغيرها من المفردات أليست هي عماد قصيدة الغزل؟ بلى إن هذا الخطاب موجه أساساً إلى ديار الشاعر، إلاّ أنه يُظهر مدى شوقه إلى ذكرياته مع الحبيبة في تلك الدّيار كقوله: (وأيامُ وصلٍ بالعقيق اقتضيتُهُ).

الملاحظ أن ابن زيدون يعمد في غزله إلى وصف الطبيعة، وذكر الأماكن، وهذا ناتج عن تمازج لغة الحب بلغة الطبيعة، وهو سمة من سمات هذه الظاهرة، ومظهر من مظاهرها لدى ابن زيدون، وهنا يمكن القول إن الطبيعة أثرت الغزل لديه، ووسعت آفاقه، ومنحته جمالاً، وشعوراً وجدانياً عالياً، وهذا ليس غريباً على ابن زيدون فهو كما قلنا: (شاعر الحب والطبيعة)[١٤].

وجميع قصائد ابن زيدون تنحو هذا المنحى من المزج بين لغة الغزل ولغة الطبيعة، كقوله[١٥]:

أيوحِشُني الزّمانُ وأنتَ أنسي ... ويُظلِمُ لي النّهارُ وأنتَ شَمسي
وأغرِسُ في محبّتِكَ الأماني ... فأجني الموتَ من ثمراتِ غَرسي
لقد جازيتَ غدراً عن وفائي ... وبِغتَ مَودّتي ظُلماً بِبَخسِ
ولو أنّ الزّمانَ أطاعَ حُكمي ... فَدَيتُكَ مِنْ مَكارِهِهِ بنفسي

في هذه المقطوعة نجد الشاعر يعاتب حبيبته عتاباً رقيقاً يبدأه بتساؤل عن سبب وحشة الزّمان وإظلام النهار، بالرّغم من أن الحبيبة هي مصدر الأنس، ومصدر الإضاءة فهي كالشمس نوراً وبهاءً، ومع ذلك فهو يغرس مفردات هذه المقطوعة: (النّهار، والشّمس، والثّمار، والغرس) كلّها مفردات مستمدة من أحضان الطبيعة نسجها الشاعر بطريقة رائعة تعبر عن عتابه ولومه لهذه الحبيبة، وهنا لا يمكن فصل مفردات الطبيعة عن مفردات الغزل، فهما تتبادلان الوظيفة التعبيرية، وكأن الطبيعة تتغلغل في

(١٤) علي عبد العظيم: ابن زيدون عصره وحياته وأدبه، ص ٣٧٤.
(١٥) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٥٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانيا قصائد الغزل[١٦]، وهذا ما أكسب شعر ابن زيدون هذه الخصوصية والروعة، فالتّمازج والاختلاط بين لغة الحب ولغة الطبيعة، كادا يكونان، موضوعاً واحداً، وكأن الطبيعة هي التي تثير في نفسية الشاعر معاني الهوى، وتحرك مشاعره، وتصل بينه وبين محبوبته، وهذا المزج لا يتهيأ إلاّ للغة خاصة يمنحها شاعر عملاق دلالاتها الجديدة التي تؤهلها للنهوض بهذه المهمة، وهذا التطويع البارع للغة، وفّر أداة قادرة على التعبير بصدق وإثارة، عن معاني الشاعر وأخيلته وصوره ورؤاه، وتصوير تفاصيل المعاناة في كل مراحل هذه العلاقة المعقدة مع ولاّدة من لقاء، وهناء، وهجر، وفراق، وصدود...

إنّ من أهم مقومات إبداع ابن زيدون وتجليات عبقريتهِ هذه اللغة الجديدة التي تجلّت من خلال القصائد والمشاهد الشعرية، وشكّلت عنصر التمييز الذي تفوّق به الشاعر عن غيره من شعراء عصره، إذ يتجلى اختلاط لغة الحب بموجودات الطبيعة بشكل واضح، وكأن وصف الطبيعة والغزل بالمحبوبة هما موردان أساسيان لهذا الفن الجديد، نتج عنهما تمازج في لغتهما وصورهما.

ولا ضير من العودة إلى أثر الطبيعة الأندلسية الساحرة التي كانت من أهم المصادر التي استقى منها حسّه المرهف، ومشاعره الصادقة ما يعبر عن لهفته وشوقه اللذين يمثلان بؤرة غزله كما أكدّ شوقي ضيف بقوله: "إن غزل ابن زيدون واسع التأثير بما فيه من عمق الجوى وعذاب الحب وحرقة العشق"[١٧]. بل إن شوقي ضيف يعدّه أهم شاعر وجداني في الأدب الأندلسي فهو "أول من اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جوى وحرقة وهوى ولوعة"[١٨]، وهو قريب في هذه الجوانب من مشاعر العذريين العميقة الصادقة، وإن كان ما يميز ابن زيدون عن غيره من الشعراء العذريين أنه.كان ينال من محبوبته، فليس كلُّ حبه تعبيراً عن الحرمان بقدر ما هو تعبيرٌ عن الحب العميق

(١٦) انظر: سعد إسماعيل شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٨، ص ١٨٠.
(١٧) شوقي ضيف: ابن زيدون، ص ٤٣.
(١٨) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢، ٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والشوق الدائم، بل إن بعض نماذج شعره توحي بالإشباع، كما يظهر في الثنائية، إذ يقول[١٩]:

يـا روضـةً طالمـا أجنَـتْ لواحِظَنَـا ... ورداً جَـلاهُ الصَّبا غَضًّا ونسـرينا
ويـا حيـاةً تَمَلَّينَـا بزهرَتِهـا ... مُنًـى ضُـرُوباً، ولـذَّاتٍ أفانينَـا
ويـا نعيمـاً خَطرنـا مِـن غَضـارَتِهِ ... فـي وَشْيِ نُعمَى سَحَبْنَا ذيلَهُ حينا

فالشاعر يعبر عن مختلف أحواله مع محبوبته ولادة، بما في ذلك من صفاء وتواصل، وما فيه من شقاء وبعاد وشكوى، وألم وفراق، وفي جميع هذه الأحوال يظهر أثر طبيعة الأندلس الساحرة ماثلاً في هذا الغزل، لأن الطبيعة مرتبطة في مخيلته بالحبيبة، فهي تضحك وتزهو وتتراقص لسعادة الشاعر بلقاء محبوبته، وتحزن على حزن الشاعر لهجر محبوبته، يقول[٢٠]:

خليلـيَّ ،لا فِطـرٌ يَسُـرُّ ولا أضـحى ... فما حالُ من أمسَى مَشُوقاً كما أضحَى؟
لَـئِن شـاقَنِي شَـرقُ العُقـابِ ، فلـم أزل ... أخصُّ بممحُـوضِ الهـوى ذلـك السَّفحا

فمشاعر الشاعر تجاه مظاهر الطبيعة مشاعر محب عاشق. ولغة خطابه لغة غزل. إذ يشكل الشاعر صوره من مفردات الطبيعة، وتظهر عواطفه المتدفقة فتتشابك مع صور عشقه لمحبوبته ولادة، لذا جاءت جمله الشعرية منسوجة حتى بدت كحُلَّةٍ سُداها الغزل ولُحمَتُها مفاتن الطبيعة، فتلاحمن تلاحماً حقيقياً جعل مظاهر الطبيعة وعلاقته بمحبوبته يتماهى أحدهما بالآخر، لذا فهو حين يريد أن يظهر جمال الحبيبة "يتمثل جمال الطبيعة في الحبيب، فيناديه بغضن البان والقمر"[٢١]:

رأيـتُ الشَّـمسَ تَطلُـعُ مِـنْ نِقـابٍ ... وغُصـنَ البـانِ يرفُـلُ فـي وِشَـاحِ

وقوله في قصيدة (يا راحتي وعذابي)[٢٢]:

(١٩) ابن زيدون، الديوان، ص ٣٩٠.
(٢٠) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٨٨.
(٢١) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٠٤.
(٢٢) ابن زيدون، الديوان، ص ٤١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أَلشَّـــــمسُ أَنـــــتِ، تَـــــوارتْ عـــــن نَـــاظِرِي بالحِجَـــابِ
مـــا البـــدرُ، شـــفَّ ســـناهُ علـــى رقيـــقِ السَّـــحابِ
إلاّ كوجهِـــــــكِ لمّـــــــا أضـــــاءَ تحـــــت النِّقـــــابِ

المفردات: (الشّمس، والبدر، والسّحاب، والإضاءة) كلّها مستوحاة من الطّبيعة ، وهذا ما يؤكد ظهور أثر الطبيعة في شعر ابن زيدون، فهو ماثلٌ في معظم قصائده ، "فالطبيعة لديه تمنح شعر الحب والغزل نغماً جميلاً تتجاوب أصداءه، طبيعة فاتنة تسبغ على المحبوب كل صفات الجمال"[٢٣].

فالتّمازج بين لغة الحب ووصف الطبيعة انطلقت من الحب أولاً، لأن عاطفة الشاعر القوية المحملة بالافتتان بجمال الحبيبة جعلته يلجأ إلى معطيات الطبيعة ليعبر من خلالها عن هذا الجمال تشبيهاً ومقارنة ومفاضلة، أي أن الشاعر يستعير من مفردات الطبيعة ما يصف به جمال المرأة، وبهذا تكون الطبيعة دخلت في بناء القصيدة الغزلية، وأوجدت سمة التمازج بين وصف الطبيعة ومفرداتها ومظاهرها، وبين علاقة الشاعر بمحبوبته في جميع أحوالها من رضا ووصال وعشق وغضب وهجر وفراق، وهذا ما بيّنه الرّكابي بقوله: "إنّ الحبّ عنده أساس لتعلقه بالطبيعة، ومحاسن المحبوبة تجد نظائرها في الطبيعة، بل إن الحبيب لأجمل منها. إنّه أجمل من البدر وأبهى، ولو أنّه بات عنده ما تطلع إلى بدر السماء"[٢٤]، وهذا واضح في قول الشاعر[٢٥]:

يـــا لَيْـــلُ طُـــلْ، لا أشـــتهي إلاّ بوَصْـــلِ قِصَـــرَكْ
لـــو بـــاتَ عنـــدي قَمَـــري مـــا بـــتُّ أَرْعَـــى قَمَـــرَكْ

(٢٣) جودة الرّكابي: الطبيعة في شعر الأندلس، مكتبة أطلس، د.م، ١٩٧٠، ص ٣٨.
(٢٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥.
(٢٥) ابن زيدون، الديوان، ص ٤٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاللغة في هذين البيتين سلسلة سهلة مناسبة، تجمع بين أحوال الطبيعة والحب، فلفظة القمر الأولى في صدر البيت الثاني تشير إلى الحبيبة، وفي عجزه تشير إلى القمر الحقيقي الموجود في وسط السماء، وهذا تَمازج لا بل تماهٍ واضح بين مفردات الطبيعة ولغة الحب، وظّفه الشاعر بمهارةٍ عالية. ونلاحظ أن الشاعر كعادة الشعراء العرب ربط في البيت الأول بين الليل ولقاء المحبوبة، ففي حالة اللقاء يتمنى أن يطول الليل، وفي حالة البعد يتمنى أن يقصر، وهنا يقصد الشاعر أنه بحضور الحبيب لا داعي لوجود القمر، فصورة الحبيب وحضوره يُغنيان عن حضور القمر وإضاءته، وهذه قمّة التماهي بين المحبوبة ومفردات الطبيعة، وهذا يدل على مدى التمازج بين الحب والطبيعة.

وحيثما أجال المتلقي نظره في معاني الشعر عند ابن زيدون، يجد نفسه أمام مشاعر الشوق والحب التي ارتبطت بشكل لافت مع مفردات الطبيعة ومعطياتها، إلى حدّ أن الشاعر وحبيبته ولّادة أصبحا يشكلان سرّين متماهيين، مع أحد مظاهر الطبيعة، وهو الظلماء، وهذا ما يظهر جليّا بالأبيات الآتية [٢٦]:

كأنّنـــا لـــم نبـــت والوَصـــلُ ثالثُنـــا ... والسُعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا

إن كـان قـد عَـزَّ فـي الـدُنيا اللّقـاءُ بكـم ... ففي مواقفِ الحشر نلقاكم ويكفينا

سِـــرّانِ فـــي خـــاطِرِ الظّلمـــاءِ يَكتُمُنـــا ... حتّـى يكـادَ لسـانُ الصُـبحِ يُفشـينا

لقد نهض بمهمة اخفاء الشاعر وحبيبته خاطر الظلماء، وهذه مهمة لا يقوم بها إلاّ إنسان. وقد أضفى الشاعر على خاطر الظلماء سمات إنسانية، فصار الليل إنساناً ثالثاً، وهذا تماهٍ جديد بين الحبيبين والطبيعة. أمّا الصباح فقد منحه الشاعر صفة الإنسان فجعل له لساناً لكي يفشي السّر بقدومه، وهذا تماهٍ مضاف. ولا يتأتى للشاعر صنع مثل هذه الأنسنة إلا من خلال لغة مُدّربة على هذه المهمة. وفضلاً عن براعة هذه اللغة في صناعة هذه التشكيلات التشخيصية، فإن ما لدى ابن زيدون من براعة في النسيج،

(٢٦) ابن زيدون، الديوان، ص ٣٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإتقان السّبك يسهم في تمكين اللغة الجديدة من أداء مهمة التمازج والتآلف، وإنتاج جمل شعرية، وصور يصعب على المتلقي التمييز الدقيق بين ما هو من رصيد الغزل، وما هو من رصيد معجم الطبيعة.

يضاف إلى كل هذا الإبداع أن ابن زيدون استطاع أن يستوحي أجمل ما في الطبيعة، وأجمل ما في المرأة من مظاهر جمالية رائعة ليمزج بينها، ويُشكل صوره الشعرية الساحرة، من خلال ألفاظ المعجمين الوصفي والغزلي المستمدين من عالم الطبيعة، وعالم المرأة.

هذا واضح في هذه الصورة الشعرية التي تجمع بين مفاتن الحبيبة ومفاتن الطبيعة[٢٧]:

بَدَت في لِدَاتٍ كَزُهْرِ النُّجومِ ... حِسَانِ التَّخَلِّي، مِلاحِ العَطَلْ*

مَشَينَ يُهادِينَ رَوضَ الرُّبَى ... بِيانِعِ رَوْضِ الصِّبا المُقتَبَلْ

فَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِرِيحٍ ... ومِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِدَلْ

ومِن زَهَراتٍ تُنَدَّى بِمِسْكٍ ... وَمِنْ زَهَراتٍ تُنَدَّى بطَلّ*

مَرَادٌ مِنَ الحُبِّ غَضُّ الجَنَى ... لَدَيْهِ مِنَ الوَصْلِ وِرْدٌ عَلَلْ

هذه صورة متشابكة المفردات من عالمي الطبيعة المحملة بصفات الحبيبة وصديقاتها، فهن في مقتبل الصِّبا يمشين بدلال، كالرّوض المليء بالأزهار المتفتحة، وهنّ يشبهن النّجوم الزّاهرة، إذ يتمايلن بدلالٍ بين أحضان الطبيعة، والماء هو الذي يرويهنّ بالحياة، فهي صورةٌ مفعمة بالأمل، والحياة، والتفاؤل، وفيها استطاع الشاعر أن يمزج بين جمال الحبيبة، وجمال الطبيعة، بلغة بارعة الدقة.

---

(٢٧) ابن زيدون، الديوان، ص ١٩٩.
(*) اللدات: من هُن بعمرها/ العَطَل ضد التخلي، وهو الخلو من الحلى.
(*) الطل: المطر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس من المبالغة القول بأن المصدر الحقيقي للجمال في هذا المشهد الشعري هو اللغة المصوغة ببراعة، فضلاً عما في ألفاظها من سلاسة مع حسن اختيار الشاعر لمفرداتها، لترسم هذا التمازج بهذه الطريقة الفنية البارعة.

ومن مظاهر البراعة في هذه اللغة، أن بعض مفرداتها تنتمي إلى حقلين لغويين مختلفين، فصارت صالحة للتّوظيف في الغزل، وفي وصف الطبيعة مثل: (روض، وقضيب، وزهرات) مُظهراً من خلالها مفاتن الحبيبة وواصفاً لجمال الطبيعة، محاولاً استخلاص أبرز المظاهر الجمالية في كليهما.

وهكذا تداخلت مفردات الطبيعة مع مفردات الغزل، ومن ثم تداخلت أيضاً صور الحبيبة مع صور الطبيعة، وهذا ظاهر في قوله[٢٨]:

وردٌ تألّقَ في ضَاحِي مَنابِتِهِ ... فازداد منه الضُحى في العَيْنِ إشراقا

سرى يُنَافِحُهُ نَيلوفرٌ عَبِقٌ ... وَسنانُ نَبَّهَ مِنهُ الصُبحُ أحْدَاقَا

فالشاعر يستعير لورد النيلوفر أحداقاً ويجعله وسنان، ويظهر النُعاس في عينيه، غير أن الصبح ينبهه فيفيق من نعاسه، وهنا يظهر أن ابن زيدون عندما يرسم صور الطبيعة، يستعير لها من مفردات دنيا الحبيبة.

وهذه الخصائص تؤكد مدى تمكن ابن زيدون من التعبير عن صوره، ومعانيه بيسر ووضوح من خلال مزج لغة الحب بلغة الطبيعة، فيتداخل موضوعا الغزل ووصف الطبيعة حتى ظهرا كأنهما موضوع واحد.

(٢٨) ابن زيدون، الديوان، ص ٣٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخلص من هذا البحث بالنتائج الآتية :

١. إنّ طبيعة الأندلس الخلابة أثرت بشكل جلي وواضح في شعر ابن زيدون ، من حيث الألفاظ ، والصور ، والدّلالات ، بل تعدّت ذلك لتشكل ظاهرة جديدة هي اشتراك ألفاظ الطبيعة بلغة الغزل لدرجة التّمازج والتّماهي.

٢. وظّف ابن زيدون الطّبيعة ليعبّر من خلالها عن حبّه الشّديد لولّادة بنت المستكفي ، فالطبيعة بكل جمالياتها هي ولّادة .

٣. نتج عن تمازج لغة الحبّ ولغة وصف الطّبيعة ، لغة جديدة ذات سمات خاصة معبرة عن رؤى الشاعر وأفكاره ، من خلال تشكيلات جديدة للصورة ، مفعمة بالحركة والحياة.

٤. وعليه فإنّ وصف الطبيعة والغزل هما موردان أساسيان لهذا الفن الجديد.

وأخيراً:

هذا البحث يفتح ميداناً واسعاً وجديداً للباحثين للخوض في بحر لغة ابن زيدون، وصوره لاكتشاف جماليات جديدة للغة الحب ، ووصف الطبيعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

١. ابن زيدون، **ديوانه**، تحقيق حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

٢. جودة الركابي، **في الأدب الأندلسي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.

٣. الخليل بن احمد الفراهيدي : **العين** : تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٧-٣٨.

٤. سعد اسماعيل الشّلبي، **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر**، دار النهضة للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢.

٥. سعد حسين منصور، **التجربة الإنسانية في نونية ابن زيدون**، الدوحة، قطر، ١٩٨٣.

٦. شوقي ضيف، **ابن زيدون**، دار المعارف، مصر، ط٩، ١٩٧٩.

٧. علي عبد العظيم، **ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه**، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٥.

٨. فوزي حسن الشايب : **محاضرات في اللسانيات** ، منشورات وزارة الثقافة ، عمّان طبعة الاولى، ١٩٩٩، ص١٦٥-١٦٩.

٩. فوزي خضر، **عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون** ، الناشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، تونس، ٢٠٠٤.

١٠. المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد، **أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق** عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية، ١٩٨٢.

١١. المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ،ط١ ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner